

الرواية العربية الجزائرية والتأريخ الاجتماعي دراسة في المتون النقدية

حميدي بلعباس

كلية الآداب جامعة مولاي الطاهر سعيدة - الجزائر-
belabbeshamidi@gmail.com

استلم: 25/01/2025، مقبول: 04/02/2025، نشر: 30/06/2025

الملخص:

تناول البحث التأطير النظري للتأريخ الاجتماعي في الرواية الجزائرية من جهة غلبة الاتجاه الإيديولوجي على الكتابة الأدبية وخاصة ذات المضامين التاريخية. من منظور الاتجاه الثقافي، لارتباط الاتجاه التاريخي بالثقافة وتأويلاتها ورؤى الناقد والتوغل داخل البنية النصية ومضمراتها الثقافية. الكلمات المفتاحية: الرواية الجزائرية، التأريخ، المتون، النقد، الإيديولوجيا

The Algerian Arabic Novel and Social History -A Study of Critical Texts-

ABSTRACT:

The study addresses the theoretical framework of social history in the Algerian novel, examining the predominance of an ideological orientation in literary writing, particularly those with historical content.

This perspective examines the cultural orientation, given the historical orientation's connection to culture, its interpretations, the critic's vision, and its exploration of the textual structure and its cultural implications.

KEYWORDS: Algerian novel, history, texts, criticism, ideology

مقدمة

لقد كانت المهمة الكبرى التي دعا اليها أدباؤنا بدعوى تمثيل الواقع الاجتماعي وتجسيد ذلك بواسطة الايديولوجيا والتي هي في الواقع مباركة للنهج السياسي الذي انتهجه صناع القرار في الجزائر.

لقد أنجب هذا التوجه أدبا إيديولوجيا في فترة السبعينيات من القرن الماضي، حيث ظلت الإبداعات الأدبية، خاصة الرواية مواكبة للخطابات السياسية، مدعمة لمساعيها ومراميها الاجتماعية ومعلقة على برامجها التنموية، فكانت مجموعة كبيرة من الروايات تبارك التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي انتهجتها الجزائر، ممارسة سبل الدعاية من أجل المجتمع المنشود.

إذ تعتبر الرواية شكلا من أشكال التعبير ووعاء تصب فيه أفكار ورغبات وأحاسيس الانسان. وهذه جملة من إطلالات النقد على المتون الروائية الجزائرية.

الرواية الجزائرية التأريخية في المتون النقدية:

إن المتتبع لمسيرة الرواية المغاربية بعامة والرواية الجزائرية بخاصة يلفي أنها ظلت إيديولوجية في جوهرها لفترة محددة من الزمن لذلك يولي إبراهيم عباس أهمية قصوى لبنية المضمون فمن خلال دراسته لرواية "اللاز" للطاهر وطار يشير إلى أن « اللاز من ذلك الطراز الروائي الذي يتداخل فيه الأدب بالتاريخ إلى حد الاندماج بوعي فنان قدير عارف بماهية الموضوع ومتعمق لأغواره موضوعيا و فنيا » (مصايف، 1988، صفحة 22).

وقد قادت هذه القراءة المضمونية الناقد إلى اعتبار هذه الرواية صنفا من أصناف الأيديولوجيا ، تسعى إلى البناء والتأطير بوعي وقدرة واستشراف « الشيء الذي حول هذه الأعمال الإبداعية من شكلها ووظيفتها الجمالية إلى خطابات أيديولوجية موجهة ومؤطرة » (عباس، دت، صفحة 17)، فحينما يقرأ المرء رواية "اللاز" للطاهر وطار ويتحسس وقائعها ويلتمس فحواها ، يدرك أنها نابعة من فكرة مسبقة الصنع واضحة المعالم والمرامي ، وبالرغم من أن نصوصها تغرف من معين الذاكرة الاجتماعية ، فإن رؤية المؤلف تتجسد في « جزئها الأول كتابة لفترة

تاريخية محددة من وجهة نظر محددة أو وعي المبدع، بكل ذلك التاريخ المفتوح، فهي تحكي عن النضال الوطني ضد الاستعمار الدخيل ويتخلل هذا الحكي حكاية تعامل الثورة مع الحزب الشيوعي. وهي بذلك ترفع الستار عن تصادم أيديولوجي بين فئتين بارزتين من خلال أحداث الرواية « (عباس، دت، صفحة 16). تصادم لم يلبث أن استوطن الذات المقاتلة والمسلوبة الحقوق نتيجة لعدم تجانس الرؤى لهذه النخبة الثورية. من هنا يمكننا أن نلاحظ أثر المد الأيديولوجي المنتشر داخل الرواية، وهاهنا تجدر الإشارة والتأكيد على « أن الفكرة لا تصير أدبا إلا إذا استحالت إلى شعور أو إلى برهة في بنية الوجدان و ما ذاك إلا أن الشعور هو كل شيء في الحياة البشرية » (عباس، دت، صفحة 16). وذلك لأن -كما يبدو- مصدر الصراع أساسه تصادم الرغبات والميولات في ذات المبدع.

يبدو أن الرواية تكشف عن وعي أيديولوجي منذ البداية، مما أورث تصادما بين كتلتين « فإذا كانت الكتلة الأولى أيديولوجية اليسار تتخندق في الوسط الشعبي، فإن الكتلة الثانية تفضل المواجهة في الشكل السلطوي المستبد » (اليوسف، 2002، صفحة 38). ومما هو جدير بالملاحظة أن إبراهيم عباس، قد حاول إبراز كيفية تعامل الكتابات التي تدعو إلى الاشتراكية مع الواقع ومعرفة مدى إخلاص الكاتب الاشتراكي لعقيدته « ليجعل منها مثله الفكرية و لا يصبح ثمة فارق بين مقاصد عقيدته ومقاصده الذاتية الأفكار لا تصبح قوة مبدعة إلا على قدر تغلغلها إلى صميم كيان الكاتب وامتزاجها بحاجات قلبه وعقله » (عباس، دت، صفحة 17). والفكرة هي الأدب إذا ما تمكنت من فؤاد الأديب. إن كثافة الصورة المذهبية اليسارية على أوضح صورها في شخصية "زيدان" أو في شخوص آخرين في الرواية واستنادها إلى وضع تاريخي وفكري معين، كل ذلك أثر على فنية العمل الأدبي كما أشار إلى ذلك الناقد، ويستدل على ذلك في « تحميل "حمو" رغم تواضعه الفكري و أميته مثل هذه القضايا النظرية الخطيرة بكل بساطة » (عيد، 1977، صفحة 224). ويقصد بذلك استعمال هذه الشخصية لألفاظ من مثل الرفيق بدلا من لفظة الأخ، وابن أمي بدلا من أخي، في حين لا يرى واسيني الأعرج في ذلك، إلا صورا من صور عفوية الشخصيات حيث يقول: « هذه العفوية ذاتها، هي شكل من أشكال الوعي التاريخي الذي يعتمد

على تفاصيل الحياة الدقيقة وعلى الملاحظات الصغيرة داخل واقع يتغير بسرعة كبيرة » (عباس، دت، صفحة 33). فإذا كانت هذه العفوية أو التلقائية في ابتكار الشخصيات قد أنجبت إبداعات أدبية مهيبة خلدها أبهى عصور الرواية، فإن عفوية أديبنا قد صبغت بألوان قانية و إلا كيف يتأتى للذهن النزيه أن يفسر ذلك « إلا إذا كان هذا ينبع من جاهزية موقف الأديب نتيجة لحتمية الخطاب الأيديولوجي الموجه » (واسيني، دت، صفحة 51). فالشخصية المحورية في رواية "اللاز"، التي هي "زيدان"، لا تنبعث على نحو تلقائي، فهي ليست سوى استحضار لموقف أيديولوجي « اجتهد الأديب في نسج قماشه خيطا خيطا » (عباس، دت، صفحة 34). فهو رمز للفكر الشيوعي بكل مظاهره.

لقد وازلت رواية "اللاز" الثانية في نظر إبراهيم عباس على استحضار الفكر الأيديولوجي غير أن حلبة الصراع قد شهدت احتداما لم تكتمل فصوله مع بزوغ فجر الاستقلال، لقد انتهى الناقد بعد فحصه لمجال الصراع الأيديولوجي داخل الرواية إلى أن الأديب « لم يفلح تماما في النص الثاني في خلق تلك الجدلية الأيديولوجية، ولم يفلح أيضا في تصميم نهج سليم وموضوعي » (عباس، دت، صفحة 34). فرهان الأديب على المرجعية الأيديولوجية ومشروعها وطموحاتها سرعان ما قد تهاوى في واقع يتغير بسرعة وذلك نتيجة الابتذال الذي مارسه السياسة؛ ابتذال صدقته الأقلام الجزائرية بوعي واندفاع، الشيء الذي جعل الأحلام والطموحات تهاوى كالجرف الهاري.

وإذا كان إبراهيم عباس يشير إلى بعض مثالب الرواية، على المستوى الفني، التي فرضتها بشدة حتمية الخطاب الأيديولوجي الموجه، فإن مخلوف عامر له رأي مخالف حيث يعتبر أن الطاهر وطار « لو تجنب بعض المسائل الشخصية في فقرات أفردا للهواري لكان أفضل، لأنها طبعت الرواية باسقاطات ذاتية وأسلوب تقريرية مباشر، و مهما يكن فإن الطاهر وطار قد استطاع أن يتابع مسيرة الثورة الجزائرية، و أن يقتفي آثار- لازها -عبر مرحلتين متميزتين » (عامر، 1981). إن هذه لم تشكل من فراغ وهيمنة الأسلوب التقريرية المباشر الذي فرضته

حتمية سبقت الإشارة إليها. في حين تظل « النصوص المتميزة شكلا ومضمونا تكتسب وجودا مغايرا لتجليات التاريخ العربي كما تؤطره الخطابات الرسمية وتختزله التحليلات الأيديولوجية التعميمية » (برادة، دت، صفحة 66). ذلك أن قراءة التاريخ داخل الأعمال الأدبية كثيرا ما تؤطر بالنزعة الاجتماعية.

وفي موقع آخر يعتبر إبراهيم عباس أن من الأسباب التي أورثت فشلا ذريعا على المستوى الفني والموضوعي هو «الاندفاع إلى الأمام لكل المعنيين بأمر الاشتراكية في الجزائر» (عباس، دت، صفحة 35). إن تحقق النزعة الاشتراكية على أرض الواقع ضمن الأصعدة الاقتصادية، السياسية والاجتماعية، قابله على الصعيد الفكري والأدبي تجسيد صورة الولاء الذي أخذ يدين به بعض الأدباء، وذلك بانحيازهم إلى جانب السلطة بدعوى اعتقادهم في الواقعية الاشتراكية مما أورث تصلبا وفشلا فنيا على مستوى الإبداعات الفنية.

وفي نفس السياق تعرض الأديب مرزاق بقطاش إلى ذلك حينما قارب مسيرة الرواية الجزائرية حيث يقول: « الرواية على حداثتها كان لها تأثير واضح بما جد في الرواية العربية المشرقية والرواية العالمية ،فأنت تجد فيها الواقعية الاشتراكية وتجد فيها الرمزية وتجد فيها الواقعية المحضة [...] هذا التأثير بالمدارس المختلفة أحدث دون شك تأثيرا في المضمون وفي الطابع الأيديولوجي » (بقطاش، 1989). إن السبب الرئيسي -في نظره- « يعود إلى تذبذب المخزون الحضاري عندنا ،بمعنى أننا مازلنا نبحث عن أنفسنا وعن الصيغة المثلى التي تجعلنا أكثر ترابطا وارتباطا بواقعنا وبأصولنا وبالعالم الذي نعيش فيه » (بقطاش، 1989). صحيح أن الرواية هي جنس حكائي غربي، بيد أن هذا الجنس يجد امتداداته بالنظر إلى الجذور والعناصر السردية في تراثنا القصصي وتميزه منوط بمنابعه المضمونية المختلفة التي تصطبغ بألوان مختلفة.

أما إذا استعرضنا رأي مخلوف عامر في منزل أنزلته إياه مقاربتة لرواية "الزلال" للظاهر وطار، نلفيه يحاول تحليل مضمون الرواية دون الإشارة إلى المقاصد الفكرية أو إلى الخطاب

الأيدولوجي الموجه الذي انتهجه الروائي، كونه يرى « أن الطاهر وطار في روايته قد جسد سمات الشخص الإقطاعي في الجزائر بأسلوب واقعي مثير » (عامر، تجارب قصيرة وقضايا كبيرة، 1984، صفحة 64). فهل المرجعية الواقعية التي أشار إليها الناقد كفيلة بأن تصنع أدبا راقيا ؟

ولعلنا نلمس ذلك فيما ذهب إليه علال سنقوقة حيث يقول : « من الدواعي الموضوعية في رأينا التي حدت ببعض الروائيين إلى السطحية و الخطابية الفجة في أعمالهم الروائية الربط الآلي بين الكتابة والواقع والإيمان الساذج بأن الكتابة في خدمة الشعب أو الثورة والأيدولوجيات، دون التفكير العميق في هذه الثنائية الخطيرة » (سنقوقة، 1997/02/12). فبين الواقع والكتابة يوجد الأدب، وسر الأدبية مرهون بمتانة وقوة العلاقة بينهما داخل الرواية.

فإذا كان محمد مصايف يرى أن المحور الرئيسي الذي تدور حوله أحداث رواية "ريح الجنوب" هو « النفسية المحافظة التي حملها ابن القاضي من أول صفحة في الرواية إلى آخر صفحة منها، وهي نفسية الطبقة الإقطاعية التي عاشت الثورة الجزائرية دون أن تندمج فيها اندماجا كلياً » (مصايف، الرواية العربية الجزائرية بين الواقعية والالتزام، 1983، الصفحات 180-181)، فإن مصطفى فاسي يبدي تحفظاً على هذا المذهب حيث يدعي أنه لم يجد في الرواية -على حد زعمه - « ما يقنع بأن ابن القاضي رجل إقطاعي » (فاسي، 1998، صفحة 13)، فالحاجة ملحة إلى التنبيه على أن ابن القاضي الذي كان حركياً يشي بالمجاهدين إلى القوات الفرنسية، أصبح بعد الاستقلال مصلحياً انتهازياً « لا يفكر سوى في أملاكه والعمل بكل الوسائل للحفاظ عليها » (فاسي، 1998، صفحة 13). بل إن هذه الشخصية لتتقمص دور التسلط الأبوي الذي أحال المرأة إلى كائن مقهور عاجز عن مخاطبة الحياة. لذلك فهو يصر على أن ابن هدوقة « قد أخفق في تقديم شخصية ابن القاضي إذا كان يريد تقديم شخصية إقطاعية » (فاسي، 1998، صفحة 17)، فالأديب حاول مقارنة الواقع وحيثياته « إذ ليس من الضروري أن يستحضر الروائي الواقع، ولكنه من الضروري أن يكون فيلسوفا يعيد قولبة الواقع في الصورة التي تجعل

من الواقع نفسه يأخذ شكلا فنيا مختلفا عن الصورة الواقعية المكررة ولكن هذا الوعي بالكتابة لم يكن مشاعا، وإن كان فهو محظور لأسباب ذاتية وتاريخية وسياسية « (سنقوقة، 12/02/1997)، كون هذا الوعي يعد مرادفا لوضع القرار السلطوي. هذه الأسباب وغيرها، جعلت الروائي يعجز عن « تقريب صورة هذا الفلاح الحقيقية من القارئ عندما اكتفى بالحديث عنه في معظم الأحيان من بعيد » (فاسي، 1998، صفحة 17). فما سبب هذا الجفاء يا ترى؟ أيرجع ذلك إلى المرحلة الجديدة التي عاشتها البلاد مباشرة بعد استقلالها نتيجة توجهات السياسة، التي أقامت حظرا تخيليا أضحت الكتابة من خلاله في تلك الفترة تلتحف برداء لونه المرجعية الفكرية ظنا منها أنها تدعم مسيرة الثورة والتغيير وتنشد تحقيق المساواة والعدل في ظل الاشتراكية؟ أم كان ذلك إيمانا بأن المحتوى الاشتراكي والدعوة إليه « هو الذي يمنح الفن الحياة وبمدى تشرب هذا الأثر الفني للأفكار الشيوعية وأفكار الحزب يكون درجة قربيه من النجاح » (عيد، 1977، صفحة 132)، إنه النجاح الذي تقرره السلطة ويرتضيه العامة.

المراجع:

1. إبراهيم عباس. (دت). *الرواية المغاربية الجدلية التاريخية والواقع المعاش*. الجزائر: منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار.
2. رجاء عيد. (1977). *فلسفة الالتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق*. الإسكندرية: منشأة المعارف.
3. علال سنقوقة. (12/02/1997). أين تتجه الرواية العربية في الجزائر؟ *جريدة الخبر* (1889).
4. محمد برادة. (دت). *فضاءات روائية*. الرباط: منشورات وزارة الثقافة.
5. محمد مصايف. (1983). *الرواية العربية الجزائرية بين الواقعية والالتزام*. تونس: الدار العربية للكتاب.
6. محمد مصايف. (1988). *دراسات في النقد والأدب*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
7. مخلوف عامر. (1981). *اللازم من الكفاح المسلح إلى الزمن الحراشي*. المجاهد الأسبوعي (1082).
8. مخلوف عامر. (1984). *تجارب قصيرة وقضايا كبيرة*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
9. مرزاق بقطاش. (21/11/1989). حوار مع الأديب بجريدة المساء. (طاهر يحيوي، المحاور).
10. مصطفى فاسي. (1998). *ريح الجنوب، المرأة الريفية وقوة الواقع*. مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر (13)، 13.
11. واسيني الأعرج. (دت). *طاهر وطار وتجربة الكتابة الواقعية*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
12. يوسف سامي اليوسف. (2002). مقال في الرواية. دمشق: دار كنعان.